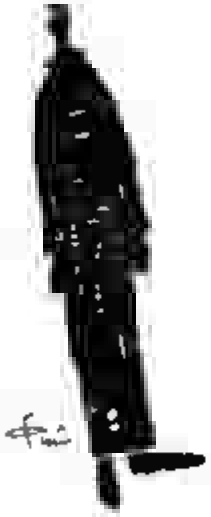

حضرة الأستاذ

بقلم

صديق شيبوب

مر أكثر من ربع قرن على وفاة « يعقوب الكاتب » وأنا لا أزال أراه ماثلا أمام عيني ، عرفته عندما كان في أواخر العقد السادس من عمره ، وكنا نسميه « المعلم يعقوب » ، وكان تلاميذه وأصدقاؤه ينادونه « حضرة الأستاذ » . كان طويل القامة نحيل الجسم ، تم عيناه الزرقاوان عن وداعة وحنان تشعان منهما ، ويسرحان على وجهه وخيته البيضاء الطويلة ، وكان يرى دائما ببدلته السوداء التي لم يغيرها منذ سنين حتى بهت لونها ، بل اخضر من فرط ما ضحكت عليها أشعة الشمس وعبثت بها الرياح والأمطار ، على أنها على تقادم العهد بها لا أثر فيها للأدران والأقذار ، كما يدل على نظافة « حضرة الأستاذ » وعنايته بكل ما يمد يدا اليه . وكان يقطع شوارع الاسكندرية متمهل الخطى مفكرا ، يسلم أحيانا بانحناء رأسه ، ولكنه اذا استوقفه أحد أصدقائه في الطريق سأله عن صحته استوقفه « حضرة الأستاذ » بدوره وتحدث طويلا

أما علومه فالصرف والنحو يتقنهما في لغات عديدة ، فهو يستظهر « الفية ابن مالك » و « أرجوزة البارحي » وكتب النحو في الفرنسية والانجليزية وله المام باليونانية القديمة . واذا سئل عن قاعدة جاء بها وبما يطابقها من اللغات الأخرى . لأن المعلم يعقوب يعنى منذ أكثر من عشرين سنة بتأليف كتاب للتوفيق بين قواعد النحو في كثير من اللغات ، وهو لا يزال حتى تلك السنين الطويلة في أوائله ويرجو أن يرزقه الله فسحة من العمر لاتمامه . ويرى أنه سيكون لظهور كتابه رنة تتجاوب أصداؤها اقطار المعمورة لأنه سيقلب طريقة التعليم رأسا على عقب ، ويجعل درس اللغات سهل التناول على مريديه .

ولما كان لا بد لكل أستاذ من افكار في الحياة وفلسفتها فقد كانت فلسفة « حضرة الأستاذ » حب الانسانية ،

بل حب كل ذى حياة وشعور . لذلك كان يتقشف فى مأكله فلا يتناول غير النبات ، ولا يشرب المسكر ، ولا يعاشر النساء ، وقد اضطر يوما الى أكل اللحم اكتفى بقليل من مرقه يثرد فيه بعض الخبز .

كان للمعلم يعقوب فى شبابه يسهم التعليم فى بعض المدارس حينا وفى منازل التلاميذ أحيانا فيساعدهم على تيسير الدرس والتحصيل ، كما كان يعلم أيضا بعض الأحداث الذين يهبطون وادى النيل ليعيشوا فيه ويريدون أن يدرسوا العربية حتى تستوى لهم سبل الحياة .

ثم أصبحت دروس المعلم يعقوب بعد أن تقدم به العمر مقتصرة على بعض الصغار من التلاميذ يلقنهم مبادىء القراءة ، وكثيرا ما كانوا يستحدمونه لهذا الغرض من قبيل الشفقة والاحسان وكان اصدقاؤه وتلاميذه القدامى يوصون به خيرا بعض الأثرياء ويهيئون له السبيل حتى يكسب القليل من المال الذى يحتاج اليه فى حياته المتواضعة .

وهكذا أوصى به احد اصدقائه السيدة « هدى ناجر » المحسنة الكبيرة التى فقدت زوجها بعد رفاقها اليه بشهور فانقطعت الى العبادة وقررت انها الذى زوجه منه وتشتته الى أعمال البر والاحسان ومؤاساة المرضى والمحتاجين .

عهدت السيدة هدى الى المعلم يعقوب تعليم ابنها الصغير مبادىء القراءة العربية وصارت تراه آتيا فى كل صباح نحو الساعة العاشرة يبدلته السوداء الخضراء وطربوشه الطويلة البيضاء التى تجعله كأنه شبح من أشباح الماضى انحدر من عهده السحيق ليعيش فى زماننا الحاضر ولاحظت أنه لا يتقيد بموعد لدرسه فربما انقضت الساعة المحددة له والمعلم يعقوب لا يزال دائبا على تعليم تلميذه الصغير وتهذيبه . وقد دخلت السيدة هدى مرة غرفة تعليم ابنها فسمعت المعلم يعقوب يقول له « ان كل ما فى الطبيعة يعلمنا بأنه يجب أن نحب بعضنا بعضا » ، وسمعته مرة أخرى يقول « يجب أن لا نستحل عذاب مخلوق ولو كان اصغر حشرة من حشرات الأرض » .

وقد تأثرت السيدة هدى بشاشة وجه المعلم يعقوب مواظبته على درسه وعدم تقيده بموعد فسألت عنه وعلمت أنه يعيش فى غرفة على سطح أحد المنازل فى شارع ضيق قذر ، وأنه يأكل فى شبه مطعم فى ذلك الشارع حيث يعرفه الأهلون ويعطفون عليه . وسألت السيدة هدى المعلم يعقوب عن حاله وكيف يعيش فقال لها ان هناك سيدة محجورا تقبل ثيابه وتغسل بعرفته فتبطها وترتبها ولكنه شكا منها أنها سيئة الخلق ، سريعة الغضب كثيرة المهاترة . وأنه يتحمل منها كل هذا بصبر لأنه لا يجد من يقوم مقامها ولأنه يؤمن بالخير ويرجو أن تصلح معاملتها مع الوقت .

فرثت السيدة هدى لحاله وأحبرته بعد أيام أنها زادت فى مرتبه فرفض هذه الزيادة لأنه لم يصل تلميذه الى حد من التعليم يبررها .

فى يوم من أيام الشتاء الباردة حيل للسيدة « هدى ناجر » وهى ترى حضرة الأستاذ يدلف الى غرفة التعليم أن عينيه قد حمدتا فى وجهه ، وان لحيته

[illegible] وأن يديه تتحركان بصعوبة شديدة . فشعرت بكثير من العطف عليه . وجعلت تفكر لعلها تهتدي الى طريقة لانقاذه من حالة البؤس التي يتخبط فيها . وكانت تعلم انه سيرفض اي اعانة مالية تقدمها له كما رفض من قبل زيادة مرتبه .

وبينما هي تفكر في ذلك وقع نظرها في دهليز المنزل على معطف معلق فيه وقد حال لونه وتغير شكله ، وهو يحتمي من الأمطار التي تهطل عليه والرياح التي تعصف به ، كما يحتمي من الليالي الباردة التي تحول فيها الى عطاء يساعد على الدفء . فتأملت السيدة هدى هذا الدثار وقالت في نفسها انه لا شك سيقبل هو ما يرتديه صاحبه . وهكذا أخذت قطعة من النقود ودستها في جيبه وعزمت أن تضع في كل يوم قطعة مثلها تساعد بها المعلم يعقوب المسكين على مكافحة مصاعب الحياة .

لاحظت السيدة هدى ان قطعة النقود لا تزال في مكانها في اليوم الثاني وكذلك في اليوم الثالث . ولما تفقدتها في اليوم الرابع لم تجدها فوضعت مكانها قطعة أخرى مثلها وهكذا في الأيام التي تلتها . وقد حاولت أن تقرأ في عيني حضرة الأستاذ من الارتياح أو الشكر أو التعجب فلم تجد لذلك أثرا .

على انها لم تملك نفسها ان سألته ثانية عن معيشته فبش في وجهها ضاحكا وقال لها :

— ألم أقل لك يا سيدتي ان العالم سائر في طريق الخير والصلاح ، وأنه يتحسن رويدا رويدا . لقد أخبرتك أمر العجوز التي تعتني بثيابي وعرفتني وما هي عليه من سوء الطبع — أما اليوم فقد تغير سلوكها وحسنت أخلاقها وصارت لا ترتاني راجعا الى غرفتي حتى تسرع الى معطفي فتنزعه عني كعهدي وتأخذه الى حيث تنظفه مما علق به من الأدران وتجففه مما لحقه من آثار المطر .